■ الفصل الثاني

الزندقة والتطرف

ثقافة الوحدة وثقافة التفرقة

لقد عمل الإسلام على بناء الوحدة كأساس للمجتمع المسلم وعبر عن ذلك الذكر الحكيم بصورة مشددة فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٢-١٠٥]، فلم ترد عبارة (حق تقاته) إلا في هذه الآية، تنبيها لأهمية وحدة أهل القبلة، ويقول جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢]، وكانت عبادته تجسيداً عملياً لهذه الوحدة فالصلاة واحدة في أركانها وأذكارها وقبلتها، والصوم واحد في الوقت والشكل، والحج لكعبة واحدة ووقفة في مكان واحد وشعائر موحدة، ولا يكون للعبادات معنى ما لم تعكس شعوراً بوحدة الانتماء إلى هذا الدين العظيم، ويعزز ذلك ما دعا إليه الإسلام من ضرورة التآخي بين المسلمين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولقد شرح النبي صلى الله عليه وآله وسلم مفهوم التآخي في الإسلام بقوله روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لا تحاسَدوا، ولا تَناجَشوا، ولا تباغَضوا، ولا تدابروا، ولا يبعْ بعضُكُم علَى بيعِ بعضٍ، وَكونوا عبادَ اللَّهِ إخوانًا المسلمُ أخو المسلمِ، لا يظلِمُهُ ولا يخذلُهُ، ولا يحقِرُهُ التَّقوَى هٰهُنا ويشيرُ إلى صدرِهِ ثلاثَ مرَّاتٍ بحسبِ امرئٍ منَ الشَّرِّ أن يحقِرَ

أخاهُ المُسلمَ، كلُّ المسلمِ علَى المسلمِ حرامٌ، دمُهُ، ومالُهُ، وَعِرْضُهُ وفي روايةٍ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: فذَكَرَ نحوَ حديثِ داودَ، وزادَ، ونقصَ وممَّا زادَ فيهِ إنَّ اللَّهَ لا ينظرُ إلى أجسادِكُم، ولا إلى صورِكُم، ولَكِن ينظرُ إلى قلوبِكُم وأشارَ بأصابعِهِ إلى صدرِهِ) وروى البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إنَّ المُؤمِنَ للمُؤْمِنِ كالبُنيانِ، يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا، وشَبَّكَ أصابِعَهُ) وأكد على ذلك بقوله كما جاء في صحيح مسلم عن الصحابي النعمان بن بشير:

(مَثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مَثلُ الجسدِ . إذا اشتكَى منه عضوٌ ، تداعَى له سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى)، وفي خط متواز مع الدعوة للوحدة نجد أن القرآن الكريم ينبذ التفرقة بعشرات الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقوله ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦]، و لعل من أهم أسباب تفشي ثقافة التفرقة هو تقليد الرجال من السلف دون عرض على ميزان الأصول، الأمر الذي لم يكن عليه الصحابة في صدر الإسلام، فهذا باب مدينة العلم على كرم الله وجهه يقول: (نحن قوم لا نعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله) كما في نهج البلاغة، وهذا أبو بكر الصديق ﷺ يقول: (وليت عليكم ولست بخيركم، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم) وكذلك الفاروق عمر ﷺ يقول: (إذا رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوموني) ويقول: (لو قيل كل الناس إلى الجنة إلا واحد لخشيت أن أكون أنا)، وعندما أحتج البعض على إمام دار الهجرة مالك ﷺ بفعل أو قول بعض السلف قال قولته الشهيرة وهو أمام الروضة المطهرة في الحرم الشريف

(كل الناس يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام) وأشار بيده إلى قبر الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أعقد المسائل التي أصيب بها المسلمون والتي عملت على إفشاء ثقافة التفرقة في مقابل ثقافة الوحدة هي مسألة ربط الإسلام بالرجال وجعل أعمالهم شريعة وديناً يدان به لله تعالى.

والحق هو أن تكون أعمال الأفراد من السلف والخلف خاضعة للأصول، وقد لعب الزنادقة دوراً فاعلاً في تأسيس ثقافة التفرقة ونشرها في بداية القرن الثاني من البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والتسليم وتعميماً للفائدة نستهل محاورنا البحثية في هذا الباب بالتعرض لنشأة الزندقة.

المبحث الأول

تاريخ نشأة الزندقة

تعريف الزندقة: نسبة إلى (زنديق) وهي كلمة أصلها فارسي قال المسعودي في مروجه أن زرادشت كتب تفسيراً لكتاب (أوستا) سماه (زند) ومن ثمَّ عرَّف الفرس كل من أتى بتأويل لنصوص كتبهم يخالف ما اتفقوا على شرعيته بمصطلح (زندي) بمعنى المنحرف عن جوهر النص إلى تأويل مخالف لما اتفق على معناه، وأخذت العرب من الفرس هذا المصطلح بعد تعريبه فقالت (زنديق) وأطلقتها على كل منكر لأصل من أصول العقيدة، أو كل رأي يؤدي إلى ذلك، وانتهى الأمر أخيراً بإطلاقه على كل من يكون مذهبه مخالفاً لما أجمعت الأمة على صحته.

تاريخ الزندقة: أول من أشتهر وعرف من الزنادقة بل وأخطرهم لدرجة أن خطر مدسوساته وأكاذيبه وتأويلاته لازالت سارية حيَّة حتى وقتنا المعاصر يتناقلها دعاة الفتنة والطائفية وتندس بخبث واضح بين أشهر الكتب وأكثرها انتشاراً، هو المسمى سيف بن عمر التميمي الأسيدي من بطن أسيد من بني عمرو من تميم من مضر، أجمع المحدثون على أنه من أخطر الوضّاعين، بدءاً من أبي داود المتوفى سنة ٢٧٥ هجري إلى ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هجري جميعهم انتقدوه بكلمات مثل (ضعيف) (متروك الحديث) (ليس على شيء) (كذَّاب) (متهم بالزندقة) وغير ذلك، واتفقوا على عدم اعتبار رواياته وكذبها، والباحث المتأمل لن يفوته أنه نادراً ما يتفق المحدثون على مثل هذا التوافق في جرح الرجال، مما يجعل الإنسان يتعجب من الكتّاب الذين جاءوا بعده وتناقلوا أساطيره، وقد بلغت

الزندقة بهذا الوضّاع درجة أنه اخترع أكثر من مائة وخمسين صحابياً لم يخلقهم الله أبداً وتحدث على لسانهم هذا الزنديق، وهو الذي اخترع شخصية عبدالله بن سبأ التي لا وجود حقيقي لها، ودبّج الأساطير التي لازال يستعملها بعض المتفيقهين في بث الفتنة والفرقة ودعوة الطائفية، وقد بلغت خطورة هذا الرجل الذي توفى عام ١٧٠ هجري في خلافة هارون العباسي، أنه ألف كتاب (الفتوح والردّة) وكتاب (الجمل ومسير علي وعائشة) اللذان أصبحا من أكثر المصادر التاريخية انتشاراً حتى يومنا هذا، والمرجح أن كتابه الأول (الفتوح والردّة) كتب قبل عام ١٥٧ هجري لأن (أبى مخنف لوط بن يحي) المتوفى عام ١٥٧ هجري نقل عنه مما يدل على انتشار كتابه قبل هذا التاريخ، والمرجح أنه ولد في بداية القرن الثاني الهجري وبدأ الكتابة في العصر الأموي، ومن أساطير سيف المشهورة هذا الحديث الذي رواه الطبري من حوادث 22 هجري قال (لما انهزم أهل جلولاء خرج «يزدجرد» كسرى الفرس يريد «الري» وكان ينام في محمله والبعير يسير به ولا يعرسون فانتهوا به إلى مخاضه وهو نائم في محمله، فأنبهوه ليعلم ولئلا يفزع إذا خاض البعير، فعنفهم وقال «بئسما صنعتم والله، لو تركتموني لعلمت مدة هذه الأمة، إني رأيت أني ومحمداً تناجينا عند الله فقال له: أملكهم مائة سنة، فقال زدني، فقال عشراً ومائة، فقال زدني، فقال عشرين ومائة سنة، فقال لك....، وأنبهتموني فلو تركتموني لعلمت ما مدة هذه الأمة؟)، ونقف على هذا الحديث قليلاً لنناقشه ثم نبين وجه دلالته على عصر وضعه.

أ- يقول سيف: إن كسرى قال (بئسما صنعتم والله) وكسرى كان مجوسياً ويمين المجوس كانت النار المقدسة والشمس والقمر، واليمين بالله كانت معروفة عند المسلمين الذين عاش سيف بينهم.

ب- كسرى لم يكن مؤمناً بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يكن يراه أهلاً

لمناجاته عند ربه، ولا يدل الحديث على شيء أوضح من بيئة سيف واضعه ومؤلفه كذباً، ويدل كذلك على رأيه في الإسلام الذي يؤمن المسلمون بأنه سيكون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا دليل على نفاق سيف الذي وضع على لسان كسرى أنه قال: (لو تركتموني لعلمت ما مدة هذه الأمة)، ولعله كان يعتقد بمعتقده الفاسد الذي يرى انقراض الأمة الإسلامية بسبب ما كان يعلمه من نشاط الزنادقة المحموم لهدم الإسلام، أو بفعل الغزوات الخارجية من الفرس والروم .

وهنا لابد من الإشارة إلى تاريخ الطبري الذي لا يتردد في نقل روايات سيف، وهذا يدل على أن كتاب التاريخ والسير لم يكونوا في كفاءة أهل الحديث واحترازهم وتدقيقهم في صحة الرواية في مثنها وسندها، بل أن كتاب التاريخ ينقلون كل الروايات دون نقد أو تمحيص أو انتخاب وهذا ليس بالعمل العلمي الذي يعتد به ويعتمد عليه، ولهذا تكون بعض رواياتهم أقل اعتباراً من روايات الحديث وبالرغم من ذلك علينا أن نعذرهم فهم على الأقل قد جمعوا كمية من الأخبار ويبقى دور المحقق الواعي لينتخب الإرث من الموروث، ويميّز الصحيح من السقيم، ومن أدلة الوضع الأخرى أن أغلب رجال سيف ورواته لم ينقل عنهم غيره، مما يؤكد صفة الوضع وخلق الشخصيات، وقد أشار سيف إلى أساطير يستحيل على العقل تصديقها مثل تحول الصحراء إلى مياه للجيش الإسلامي، ومياه البحر إلى رمال، وأن الأبقار أخبرتهم عن مخبئها إلى غير ذلك.

ومن أخطر تلفيقاته اختراعه لشخصية عبدالله بن سبأ اليهودي المجهول، الذي اندس بين أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويقوم بإغوائهم ويحرض الناس على الثورة ضد عثمان ﷺ، ويتسبب في قتله ويحرض على المعركة بين علي وطلحة والزبير يوم الجمل، ويكون بذلك قد زرع بذور الفتنة في حقل المسلمين، لازالت حشائشها الطفيلية السامة تعيق نمو الزرع المثمر حتى يومنا هذا، ونجد كذلك أن سيف هذا صرف وقتاً طويلاً في اختلاق أبطال

أسطوريين من تميم قبيلته التي يرجع إليها أصله وهو الذي ولد وعاش بالكوفة في عصر الأمويين الذين مجدهم في كتبه وأساطيره وربط بينهم وبين مضر أصل قبيلة تميم، لذلك اخترع منهم الصحابة وقادة الجيوش والشعراء واخترع لأجلهم الأحاديث والمعارك والقصائد في عصر كانت فيه العصبية القبلية هي السائدة، ولأجل هذا المجد مات منهم في خيال سيف المريض عشرات الألوف وعدداً كبيراً من الأسرى، ليخلد الشعر والشعراء الوهميين الأبطال من مضر وتميم وبنو عمرو فرعه الذي يرجع إليه أصله، وكل هذا شوش على عقيدة الكثيرين وأعطى غير المسلمين فهماً خاطئاً عن الإسلام، وقد كان سيف هذا بارعاً في مزيفاته إلى حد أنهم تقبلوها كحقائق تاريخية لازال الكثيرون يحاججون بها حتى اليوم على أنها من أفعال وأقوال السلف الصالح، ووجد المغالون والمتطرفون مادتهم لترويج غلوهم وتطرفهم في روايات سيف وأمثاله، وما عليك أيها الأخ المشفق إلا أن تهوّن على نفسك وأن تصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا وكن داعياً للحق الذي لا يدرك إلا بالعلم والتمحيص والابتهال إلى الله حتى يريك الحق ويرزقك اتباعه ويريك الباطل ويرزقك اجتنابه، واصبر على ما سوف يقولونه في حقك، وأعلم أنه لا أكمل ولا أعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم وقد قالوا عنه أنه ساحر ومجنون، وأي كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين وقد قالوا إنه أساطير الأولين، وإياك أن تشتغل بخصامهم وتطمع في إفحامهم فتطمع في غير مطمع ، أما سمعت قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٧].

اعلم أخي المؤمن أن الحق والضلال وسرهما، لا ينجلي للقلوب المدنّسة بطلب الجاه والمال وحبهما، بل لا ينكشف إلا للقلوب التي طهرت من وسخ

الدنيا، ثم نورت بالذكر الصافي، وغذيت بالفكر الصائب، وزينت بملازمة حدود الشرع،حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة (واتقوا الله ويعلمكم الله) وصارت كأنها مرآة مجلوّة ، وصار مصباح الإيمان في زجاجة قلبه ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، وأترك أهل الزندقة الذين اتخذوا الهوى إله لهم، وعبدوا حكامهم، وكان الدينار قبلتهم، والرعونة شريعتهم، والشهوات إرادتهم، وخدمة السلاطين عبادتهم، والوسواس ذكرهم، وفكرهم استنباط الحيل للتدجيل على المسلمين، وكيف لهؤلاء تمييز الصحيح من السقيم، أبإلهام إلهي وقلوبهم لم تفرغ من الهوى وحب الدنيا، أم بكمال العلم وبضاعتهم في العلم فقه الحيض والمرحاض وإطلاق اللحية وتشمير السروال هيهات هيهات...، فأعرض عمن تولى عن ذكر الله ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

إن أفكار الزنادقة هي التي أسست للتطرف وزينت للمتطرفين تكفير من يختلف معهم لاعتقادهم أن الحق لا يجري إلا مجراهم وهم لذلك كفروا من أقر لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة لمجرد اختلافه معهم في فرع ليس من الأصول التي يجب معرفتها من الدين بالضرورة، فهل هناك أساس عقلي أو نقلي للتكفير بسبب الاختلاف المذهبي؟.. دعنا نحاول الإجابة من الكتاب والسنّة.

المبحث الثاني
التطرف وأثره في تكفير الغير دون أساس

أخي المؤمن كل من يعتقد أن مذهبه فقط هو المذهب الحق وأن من يعتقد أو يقلد أحد المذاهب الأخرى من تلك التي أجمع المسلمون على جواز تقليدها والتعبد بها على خطأ، ثم يكفره، فاعلم أنه زنديق، واعلم أنك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفاً على واحد من الفقهاء والعلماء بعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب وذلك لما يلي:

أما الكفر فلأنه أنزل شيخه أو من قال بقوله، منزلة النبي المعصوم من الزلل، الذي لا يثبت الإيمان إلا بموافقته، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته. **وأما التناقض** فهو في حقيقة أن ما رآه حجة عليه، وكل يرى بنظره، فكأنه يقول لغيره قلدني في مذهبي وعليك أن ترى بنظري وهذا يستحيل. والحقيقة التي يجب على كل مسلم التمسك بها هي معرفة حد الكفر، وشرح هذا يطول ولكن إيجازه لمعرفة العلاقة الصحيحة التي تعصم الإنسان من تكفير أهل القبلة من أصحاب المذاهب والمدارس الفقهية الإسلامية وإن اختلفت طرقهم ما داموا متمسكين بقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) صادقين بها، غير مناقضين لها ، يكون بإدراك أن الكفر هو (**تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم**) (**في شيء مما جاء به**) والإيمان هو (**تصديقه في جميع ما جاء به**)، وهذا لأن الكفر حكم شرعي وليس اجتهاد عقلي، ومعناه الحكم بإباحة الدم والمال والخلود في النار، وهذا لا يدرك إلا بنص، أو قياس على منصوص، وقد وردت النصوص في اليهود والنصارى والبراهمة والزنادقة والدهرية وكلهم مشركون مكذبون للرسل، وتكذيب الرسل هو العلاقة

المطردة المنعكسة، ومما ذكر سنجد أن جهّال كل فرقة تكفر مخالفتها وتنسب ذلك إلى تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فالحنبلي يكفر الأشعري زاعما أنه كذب الرسول في إثبات الفوق لله تعالى، وفي الاستواء على العرش، والأشعري يكفر الحنبلي لأنه كذب الرسول وشبه الله الذي (ليس كمثله شيء)، والأشعري يكفر المعتزلي زاعماً أنه كذب الرسول في جواز رؤية الله تعالى وفي إثبات العلم والقدرة والصفات له، والمعتزلي يكفر الأشعري لأنه كذب الرسول في التوحيد زاعماً أن إثبات الصفات تكثير للقديم، ولا يمكن أن يخرج الإنسان من هذه الورطة إلا بمعرفة حد التكذيب والتصديق وحقيقتهما، فينكشف له غلو هذه الفرق وإسرافها في تكفير بعضها بعض، ولذلك **فإن معرفة حقيقة التصديق هي الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بوجوده**، وللوجود خمس مراتب، وبسبب الغفلة عن هذه المراتب نسبت كل فرقة مخالفها للتكذيب، ومراتب الوجود هي (**ذاتي، وحسي، وخيالي، وعقلي، وشبهي**)، ومن اعترف بوجود ما أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق ولتحقيق ذلك ننقل شرح مراتب الوجود:

١- الوجود الذاتي: هو الوجود الحقيقي الثابت خارج الحس والعقل ويأخذ الحس والعقل عنه فيسمى أخذه إدراكاً، وهذا كوجود السماء والأرض والحيوان والنبات، وهو ظاهر بل هو المعروف الذي لا يعرف الأكثرون للوجود معنى سواه.

٢- الوجود الحسّي: فهو ما يتمثل في القوة الباصرة (العين) مما لا وجود له خارجها، فيكون موجوداً في الحس، ويختص به الحاس ولا يشاركه غيره، مثل (الحلم) الذي يشاهده النائم، والخيال الذي يشاهده المريض النفسي يقظة، الذي تتمثل له صورة لا وجود لها خارج حسه، وما يتمثل للأنبياء والأولياء في اليقظة والصحة، من صور جميلة تحاكي جواهر الملائكة، ينتهي إليهم الوحي والإلهام

بواسطتها، فيتلقون من أمر الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في المنام، وذلك لشدة صفاء باطنهم كما قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ورؤية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل وقد رآه في عدة صور ولم يره على صورته إلا مرتين، وكذلك مثل من يرى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقد قال: «**من رآني فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بي**» ولا يعني ذلك انتقال شخصه من روضته بالمدينة المنورة إلى موضع القائم، بل هي على سبيل وجوده في حس النائم.

٣- الوجود الخيالي: هو صورة هذه المحسوسات إذا غابت عن حسك، فإنك تستطيع أن تخترع في خيالك صورة حيوان أو إنسان أو أي شيء وأنت مغمض العينين، حتى كأنك تشاهده، وهو موجود بكمال صورته في خيالك داخل دماغك لا خارجه.

٤- الوجود العقلي: هو أن يكون للشيء روح، وحقيقة، ومعنى، فيتلقى العقل مجرد معناه، دون أن يثبت صورته في الخيال أو الحسّ أو خارج، فللقلم مثلاً صورة ولكن حقيقته ما تكتب به المعارف والعلوم وهذا ما يتلقاه العقل من غير أن يكون مقروناً بصورة مادة القلم قصب أو خشب أو معدن.

٥- الوجود الشبهي: وهو أن يكون نفس الشيء موجوداً لا بصورته ولا حقيقته لا في الخارج ولا في الحس ولا في الخيال ولا في العقل ولكن يكون الموجود شيئاً يشبهه في خاصة من خواصه وصفة من صفاته.

ومن هذه المراتب الخمسة ودرجاتها في التأويل نشرحها كما يلي:

أ- **الوجود الذاتي**: لا يحتاج إلى مثال وهو الذي يجري على الظاهر ولا يؤول لأنه الوجود المطلق الحقيقي كإخبار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن العرش، والكرسي والسماوات السبع كونها أجسام حقيقية أدركت بالحس والخيال أو لم تدرك.

ب- **الوجود الحسي**: مثل قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (عرضت عليّ الجنّة في عرض هذا الحائط) فمن قام عنده البرهان على أن الأجسام لا تتداخل وأن الصغير لا يسع الكبير حمل ذلك على أن نفس الجنّة لم تنتقل إلى الحائط لكن تمثل للحس صورتها في الحائط حتى كأنه يشاهدها،

ولا يمتنع أن يشاهد مثال شيء كبير على شيء صغير كما نشاهد اليوم على شاشات التلفاز التي هي أقل من مساحة الحائط يمكن للمشاهد أن يرى من خلالها العالم بكامله، كما أنه يمكنك أن تتخيل أن الجنّة على حجم الحائط وأنت مغمض العينين في خيالك.

ت - **الوجود الخيالي**: و مثاله قوله صلى الله عليه ويله وسلم: (كأني أنظر إلى يونس بن متّى عليه عباءتان قطوانيتان، يلبي وتجيبه الجبال، والله تعالى يقول له لبيك يا يونس) والظاهر أن هذا إنباء عن تمثل الصورة في خياله، إذ كان وجود هذه الحالة سابقاً على وجود الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد انعدم ذلك ولم يعد موجوداً في الحال، ويمكن القول أيضاً تمثل هذا في حسه حتى صار يشاهده كما يشاهد القائم الصورة وقوله **كأني أنظر**، يدل على أن غرضه كان التفهيم بالمثال لا عين الصورة.

ث- **الوجود العقلي**: فأمثلته كثيرة منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله خمّر أدم بيده أربعين صباحاً) فقد أثبت لله تعالى يداً، ومن قام عنده البرهان على استحالة (يد) لله تعالى كجارحة محسوسة أو متخيلة، فإنه يثبت لله سبحانه يداً روحانية عقلية بأن يثبت معنى اليد وحقيقتها وروحها دون صورتها، وكذلك ما ذهب إليه أن اليد عبارة عن صفة لله تعالى كالقدرة والكرم والرحمة وغيرها.

ج - **الوجود الشبهي**: فمثاله الغضب والشوق والفرح وغير ذلك مما ورد في حق الله تعالى ، فالغضب مثلاً حقيقته أنه غليان القلب لإرادة التشفي ، وهذا لا

ينفك عن نقصان وألم، فمن قام عنده البرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب لله تعالى ثبوتاً ذاتياً وحسياً وخيالياً وعقلياً، نزّله على ثبوت صفة أخرى يصدر منها ما يصدر من الغضب في حقيقة ذاته، ولكن في صفة من الصفات تقارنها، وأثر من الآثار يصدر عنها وهو الإيلام مثلا.

مما سبق نعلم علم اليقين أن كل من نزّل قولاً من أقوال صاحب الشرع على درجة من هذه الدرجات، فهو من المصدقين، والتكذيب أن ينقض جميع هذه المعاني، ويزعم أن ما قاله لا معنى له وذلك هو الكفر المحض والزندقة ، وتنكّب جادة الصواب هو تكفير المؤولين الذين يلازمون قانون التأويل، وما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه، فأبعد الناس عن التأويل الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازاً أو استعارة ، ونعني بذلك الوجود العقلي والوجود الشّبهي، اللذان أسلفنا ذكرهما، ونجد أن الحنبلي مضطر إليه وقائل به وقد قام الإمام أحمد بتأويل ثلاثة أحاديث وهي:

١ - قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (**الحجر الأسود يمين الله في الأرض**) حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهره فقال: اليمين تقبل في العادة تقرباً إلى صاحبها والحجر الأسود يقبل أيضاً تقرباً إلى الله تعالى فهو مثل اليمين لا في ذاته ولا في صفات ذاته ولكن في عارض من عوارضه، وسمي لذلك يميناً، وهذا هو الوجود الذي سميناه الوجود الشبهي وهو أبعد وجوه التأويل، فانظر كيف اضطر إليه أبعد الناس عن التأويل.

٢ - قوله صلى الله عليه وآله وسلم (قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن) حيث قام البرهان عنده على استحالة وجود إصبعين لله تعالى حسّا فتأوله على روح الإصبعين، وهي الإصبع العقلية الروحانية التي يتيسر بها تقليب الأشياء

وبها يقلب الله تعالى القلوب فكني بالإصبعين عنهما.

٣- قوله صلى الله عليه وآله وسلم (إني لا أجد نفس الرحمن من قبل اليمن) وتأوله على ما عرف عن أهل اليمن من رقة ولطف ورحمة أو أن الرياح التي تهب على الحجاز من جهة اليمن ناعمة .

وقد اقتصر أحمد بن حنبل ﷺ على تأويل هذه الأحاديث الثلاثة لأنه لم تظهر عنده استحالة إلا في هذا القدر، وقد تجاوز الأشعري إلى تأويل ظواهر كثيرة لزيادة بحثه، والمعتزلة أشد توغّلا في التأويلات ومن هنا نعلم أن كل فريق وإن بالغ في ملازمة الظواهر فهو مضطر إلى التأويل، إلا أن يجاوز الحد في الغباوة والجهل فيقول مثلاً: الحجر الأسود يمين الله تحقيقاً، ومن انتهى إلى هذا الحد من الجهل فقد انخلع من ربطة العقل ولا يكون إلا زنديقاً.

قد علمنا اتفاق الفرق من أهل القبلة على درجات التأويل الخمس وأن ذلك ليس من حيز التكذيب الموجب للتكفير، فيجب أن نعلم أيضاً أن جواز ذلك موقوف على قيام البرهان على استحالة الظاهر، والظاهر الأول هو الوجود الذاتي فإنه إذا ثبت ألزم الجميع، فإن تعذر فالوجود الحسّي فإن تعذر فالوجود الخيالي أو العقلي وإن تعذر فالوجود الشبهي المجازي، ولا رخصة للعدول على درجة إلى ما دونها إلا بضرورة البرهان، ويرجع الاختلاف علي التحقيق إلى البراهين، إذ يقول الحنبلي: لا برهان علي استحالة اختصاص الباري بجهة فوق، و يقول الأشعري: لا برهان على استحالة الرؤية، و كان كل واحد لا يرضى بما ذكره الآخر و لا يراه دليلاً قاطعاً، وكيفما كان فلا ينبغي أن يكفر كل فريق غيره بمجرد أن يراه غالطاً في البرهان، يجوز مثلاً أن يراه ضالاً عن الطريق الثابت عنده، أو أنه مبتدعاً من حيث أنه ابتدع قولاً لم يعهد من السابقين التصريح به، وعن هذا يتضح أن هناك مقامين:

المقام الأول: مقام العوام، و الحق فيه الاتباع و الزجر عن الخوض في الكلام

وتتبع ما تشابه من الكتاب والسنّة كما روي عن الإمام مالك ﷺ، أنه سئل عن الاستواء فقال: (**الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيفية مجهولة، و السؤال عنه بدعة**).

المقام الثاني: بين أهل العلم الذين اضطربت مأثوراتهم المروية، فينبغي أن يكون بحثهم بقدر الضرورة، و تركهم الظاهر لا يكون إلا بضرورة البرهان القاطع، ولا ينبغي أن يكفر بعضهم بعضاً بأن يراه غالطاً فيما يعتقده برهاناً، وليكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه، فإنهم إن لم يتفقوا في الميزان لم يمكنهم دفع الخلاف بالوزن، مع العلم بأنه لا يستحيل الاختلاف، إما لقصور بعضهم عن إدراك تمام شروطه، وإما رجوعهم إلى الطبع والعادة دون الوزن بالميزان الشرعي، أو لاختلافهم في العلوم التي هي مقدمات البراهين، فالعلوم التي هي أصول البراهين تجريبية وتواترية وغيرها، والناس يختلفون في التجربة والتواتر، فقد يتواتر عند الواحد ما لا يتواتر عند غيره، و قد يتولى تجربة لا يتولاها مخالفه، أو لالتباس قضايا الوهم بقضايا العقل، أو لالتباس المصطلحات بالضروريات والأوليات ولكن الثابت أنهم إذا تمكنوا من موازين الاختلاف وحققوها، أمكنهم الوقوف عند ترك العناد علي مواقف الغلط و العزة بالإثم.

ومن ذلك يمكن القول أن التأويل دون برهان قاطع يؤدي إلى الزندقة، ويدفع إلى الغلو والتطرف، فكثير من السذج ينساق لمقولات الزنادقة ويبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع، ويبادر إلى التكفير دون أن ينظر إن كان التأويل في أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها وذلك لا يلزم التكفير، مع وجوب ردع من يغير الظاهر ويتأوله بغير برهان قاطع، وهذه هي الزندقة بعينها، التي يجب تكفيرها قطعاً، وكذلك من يقول جاز للرسل الكذب لإصلاح الناس، فليس بكاذب عندهم من أصلح غيره فقال ما فيه صلاحهم وإن لم يكن ما قاله

موجودا، وهذا باطل قطعاً لأنه تصريح بالكذب وهذه أول درجات الزندقة، وفي لفظ لحديث مشهور في بعض الروايات (ستفترق أمتي إلى بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة) أورده الغزالي في كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، وظاهر الحديث يدل على أنه أراد به (الزنادقة) من أمته، إذ قال (ستفترق أمتي) ومن لم يعترف بنبوته فليس من أمته، ومن ذلك نعلم أن الزنادقة قد يقولون مقولة التوحيد ظاهراً، ولكنهم من أهل النار ولا نعلم معنى للزندقة إلا هذا، وحيث أنه يطول شرح الزندقة وما يكفر ولا يكفر وذلك يحتاج مجلدات فلا مجال أمامنا إلا أن نقنع بوصية وقانون:

أما **الوصية**: أن تكف اللسان عن أهل القبلة ما أمكنك، ما داموا قائلين بلا إله إلا الله محمد رسول الله، غير مناقضين، والمناقضة تجويز الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعذر أو بغير عذر، ويجب أن نعلم أن التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه.

أما **القانون**: فهو أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع، وأن أصول الإيمان ثلاثة هي الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر، وما عداه فروع، واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلا في مسألة واحدة، وهي أن ينكر أصلاً دينياً علم من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالتواتر، قد يكون في بعضها تخطئة كما في الفقهيات، وفي بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بأحوال الصحابة، أما تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يوجب التكفير وإن كان من الفروع، فلو قال قائل مثلاً: البيت الذي بمكة ليس الكعبة التي أمر الله بالحج إليها فقد كفر، لأن ذلك ثبت تواتراً عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك من رمي السيدة عائشة ﵂ بالفاحشة وقد نزل القرآن ببراءتها فهو كافر ، وهذا ما قال به الزنديق الكافر سلمان رشدي، أما من أنكر ما ثبت بأخبار الآحاد فلا يلزمه به الكفر، هذا حكم الفروع، أما الأصول الثلاثة، وكل ما

لم يحتمل التأويل في نفسه وتواتر نقله، ولم يتصور أن يقوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض، و التكذيب زندقة و كفر، أما ما يتطرق إليه احتمال التأويل و لو بالمجاز البعيد فننظر إلى البرهان، فإن كان قاطعاً وجب القول به، ولكن إن كان في إظهاره مع العوام ضرر، لقصور فهمهم، فإظهاره بدعة، وإذا لم يكن البرهان قطعياً، لكن يفيد ظناً غالباً، وكان مع ذلك لا يعلم ضرره في الدين، كنفي المعتزلة الرؤية علي الله تعالى، فيكون ذلك بدعة وليس بكفر، و أما ما يظهر له ضرر فإنه يقع في محل الاجتهاد والنظر فيتحمل أن يكفر ويتحمل أن لا يكفر مثل قول بعض أدعياء الصوفية أنه بلغ حالة أسقطت عنه الصلاة وأحلت له المحرمات فهذا ممن لا شك في زندقته ووجوب قتله وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر، و لا ينبغي أن يظن أن التكفير ونفيه ينبغي أن يدرك قطعاً في كل مقام، لأن التكفير حكم شرعي ينتج عنه إباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود في النار، ومأخذه كمأخذ سائر الأحكام الشرعية، تارة يدرك بيقين وتارة بظن غالب وتارة يتردد فيه، ومهما حصل تردد فالوقف فيه عن التكفير أولى، والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل، لأن معرفة ما يقبل التأويل وما لا يقبله ليس بالهين بل لا يستقل به إلا الماهر الحاذق في علم العربية العارف بأصولها وعادة العرب في استعمال استعاراتها وتجاوزاتها ومناهجها في ضرب الأمثال، ومن أشد الناس غلواً وإسرافاً في التكفير الطائفة الوهابية التي تدعي السلفية الذين كفروا عوام المسلمين وزعموا أنه من لا يقول بقولهم ومن لا يعرف الأدلة الشرعية بأدلتهم التي حررها شيخهم محمد عبدالوهاب التميمي النجدي فهو كافر، فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده وجعلوا الجنّة وقفاً على شرذمة يسيرة من القائلين بقولهم ممن جهلوا ما تواتر من السنّة، وقد كفروا الأشاعرة والماتريدية وأهل التصوف واعتبروا أن حجتهم أكثر علمية من فقهاء الحنفية والمالكية والشافعية بل ومن خالفهم من الحنابلة الذين يدعون الانتماء

لمنهجهم في الاستنباط والتحقيق، ووصل الأمر إلى تكفير المذاهب الشيعية خاصة الإسماعيلية والإمامية وحتى الزيدية وتقولهم على الاباظية ومن ذلك نعلم أنهم كفروا وبدعوا وفسقوا أكثر من ٩٥٪ من أهل القبلة الذين قال فيهم سيد الخلق (لا تجتمع أمتي على ضلالة) والطامة الأكبر أن أتباع هذا المذهب المنحرف المخالف للغالبية العظمى من أمة الإسلام تمكنوا من السيطرة على الحرمين الشريفين وفرضوا مذهبهم على الحجاج والمعتمرين ومنعوا العلماء من غيرهم من أن ينتفع الناس بعلومهم وفتاواهم وقد نتج عن ذلك انحراف خطير شوّه الصورة، وأعاق الدعوة، ومنع الإسلام من الانتشار، ناهيك عن أنهم استباحوا دماء المسلمين وأموالهم، هذا ما رأيناه في الجزائر ومصر واليمن والعراق وسورية وإندونيسيا وغيرها من ديار الإسلام، الأمر الذي بات معه مواجهة هذا التيار فاسد العقيدة والعبادات والمعاملات ضرورة واجبة لن يستقيم حال الأمة إلا بمواجهته وإظهار جهله واقتلاعه من جذوره وأهم خطوة واجبة الإتخاذ هي تطهير الحرمين الشريفين من رجس دعاة التكفير وإلى أن يكون ذلك لا مناص من تحصين شبابنا من إفكهم، وهذا لن يكون إلا بإعادة الاعتبار للمدارس الفقهية التي أجاز الفقهاء التعبد بها خاصة التي سادت في منطقتنا منذ مئات السنين وذلك بالتوسع في تعليم أصول الدين وفقاً لمناهجها والتبحر في علومها وتحقيق مخطوطاتها وتكريم من لازال على قيد الحياة من كبار مشايخها، ثم التأكيد على الشورى باعتبارها أصل من أصول الدين تحقق منعة المجتمع الإسلامي من كل الضلالات المادية والمعنوية.